في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

طلب إلي أن أتحدث في فلسطين عن مصر ، وإن فلسطين لعزيزة على كل نفس ، حبيبة إلى كل قلب ، جديرة أن تذكر لدى كل بادرة ، ويستهل بها عند كل حديث .

ألست إذا ذكرت ذلك البلد الطيب — أينما كنت في بلاد الله ، في أوطان العروبة والإسلام — تحولت إليك الوجوه وتطاولت نحوك الأعناق ، وتطلعت لما تبديه القلوب والأبصار ؟ !

فيالله ما أعجب !! إن في ذلك الاسم لسراً من الأسرار ، بل إن فيه لسحراً من السحر ! !

أجل . إن فلسطين لتلك ، وإن الحديث عنها لذو شجون . إنها البلد القدس ، إنها بلد الوحي والنبوة ، إنها القبلة الأولى في الإسلام . فلا عجب أن تتشوق إليها كل نفس ، ويهفو لدى ذكرها كل فؤاد ... وإن مسالك الحديث عن فلسطين لكثيرة ، بل إنها لأوفر من أن يحيط بها حصر ، أو يطيف بها إلمام . فعلي أن أسلك سبيلا ينتهي إلى غاية ، فأتحدث عن حياة الأدب هناك .

وحياة الأدب في فلسطين حديثة العهد قريبة الأمد . فلو ذهبنا مع التاريخ غير بعيد ، لألفيناها خلواً من الأدب جملة ، عدا نتف من هنا وهناك ، كانت تبدو على أقلام الفقهاء ، ورجال الدواوين ؛ لا يصح أن تسمى أدباً ، كما لا يصح أن تعتبر مظهراً من مظاهر الأدب على أية حال .

وحين تتوغل في تاريخها . نجد أنها لم تنجب — على تطاول العصور — غير آحاد من الأفذاذ الذين كانوا يلتمعون بين حين وآخر ، وفيهم الكاتب والشاعر والمؤرخ . ومن هؤلاء : عبد الرحيم البيساني (القاضي الفاضل) ، وصلاح الدين الصفدي (صاحب التآليف الكثيرة) ، ومجير الدين الحنبلي (صاحب الأنس الجليل في أعيان القدس والخليل) . وآخرون غيرهم ، ندر أن تعاصر منهم اثنان ، فتركا أثراً بارزاً من آثار الأدب الخالد ، وذلك إذا اعتبرنا فلسطين في حدودها التي تنحصر خلالها اليوم .

ولعل السبب أنها بلد مقدس ، فيه المسجد الأقصى حيث الصخرة المشرفة ، وفيه الحرم الإبراهيمي والأنبياء من أبنائه . ولذا كان همّ من أعرض عن الدنيا وزخرفها ، أن يشدّ إليها الرحال ، ليقيم فيها منصرفاً إلى الله وطلب رضوانه ، مقبلا على تفهم كتابه وسنة نبيه .

ومن هنا نبغ في فلسطين من أئمة الفقه ورجال السنة ، من بقيت آثارهم وفتاواهم — إلى اليوم — شاهدة على مبلغهم من هذا العلم ، وتبحرهم فيه . ومن هؤلاء : شيخ الإسلام خيرالدين الرملي (صاحب الفتاوى الخيرية) والشيخ محمد الخليلي (صاحب الفتاوى الخليلية) ، والشيخ سعد الدين الديري الخالدي (صاحب السهام الخارقة في الرد على الزنادقة) ، والشيخ منيب هاشم الجعفري النابلسي (صاحب الفتاوى الشهيرة) . وحسب فلسطين فخراً أن تنجب على رأس هؤلاء : الإمام الجليل (أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الغزي) الذي طبق ذكره الخافقين ، وانتشر مذهبه في بعيد الآفاق .

« أضف إلى ذلك افتقارها إلى مفاتن الطبيعة وجمالها الفطري ، وخلوها من اتساع الحضارة وارتقاء العمران . فلا أنهار تسلكها قوارب المتنزهين و طلاب المتعة ، وتنتشر على ضفافها الحدائق والمتنزهات ومواطن اللهو ، ولا مدن كبيرة واسعة الأرجاء ، مزدهرة الحضارة ، كثيرة الأرباض ملتفة الرياض والنياض . كما هو الحال في القاهرة ودمشق وبغداد والمدينة وغرناطة وسواها[1] » .

ومن هنا تتبين أن فلسطين حديثة عهد بنهضتها الأدبية ، حتى أنه ما يزال معظم هؤلاء المؤسسين لها أحياء يرزقون . ونرجو الله أن يمد في آجالهم حتى يؤدوا رسالاتهم على أتم الوجوه وأكملها .

ولعل الكثيرين من إخواننا في مصر (وغير مصر) يجهلون أن في فلسطين نهضة ثقافية وحياة أدبية ، ولا عجب

(١) هذا رأي يراه أستاذنا الكبير أحمد سامي الخالدي (عميد الكلية العربية في القدس) . وليس لنا فيه غير صوت الكلية .

فاننا نكاد نعيش فى معزل عن العالم العربى ، لقلة وسائل النشر عندنا . فلا مجلات شهرية تضاهى (المقتطف) و (الهلال) ، ولا مجلات أسبوعية تماثل (الرسالة) أو (الثقافة) . اللهم إلا مجلة واحدة ، كان يصدرها قلم المطبوعات (شهرية) ، إبان الحرب الأخيرة ، واسمها (المنتدى) . وكان معظم ما ينشر فيها بأقلام مشاهير الكتاب من مصريين وسوريين ، وبعض الفلسطينيين ، ولذا لا تعتبر صورة صادقة عن الأدب الفلسطينى الخالص[1] .

كما أنه ليست هنالك دار للنشر تضاهى (دار الكتب) أو (دار الهلال) ، خلا دار حديثة ناشئة ، قام على تأسيسها جماعة فى (يافا) ، وهى تصدر سلسلة شهرية من كتيب صغير ، على غرار سلسلة (اقرأ) فى مصر إلا أن هذا الكتيب ينقص كثيراً فى حجمه عن كتيب (اقرأ) ، بالرغم من أنه يساويه بالثمن ، وقد صدر من هذه السلسلة إلى الآن خمسة أعداد على ما أذكر .

إذن ماذا يصنع الأديب الفلسطينى ليعرفه الناس ويعرفوا آثاره الأدبية ؟ إن أمامه واحداً من السبل التالية ، وليس له عنه منتدح :

فاما أن يطبع كتابه أو ديوان شعره من خاص ماله ، ويعرضه فى الأسواق (مجازفة) ويرتقب حظه ، ولا يقدم على هذا فى الغالب إلا الموسرون من الأدباء . وهؤلاء كثيراً ما يصادفهم النجاح .

وإما أن يهتبل فرصة ملائمة ، تسوقها مناسبة من المناسبات . ويبادر فيحتجن إلى نفسه هذا المجال المحدود الذى تعده الصحف اليومية لذلك ، (وعندنا منها صحيفتان هما الدفاع وفلسطين[2]) ، فيملأ ذلك المجال بشعره أو بنثره الذى أعده لتلك المناسبة .

وإما أن يترقب ميقاته فى (محطة الأذاعة الفلسطينية) ، ليحاضر الناس من وراء المذياع بشىء من أدبه . وهذه المحطة تعد فى براعمها أحاديث أدبية ، يقدمها فى الغالب أديب فلسطينى أو أديبة فلسطينية .

وقد يتجنب الأديب هذه السبل جميعاً فينظم أو يؤلف لنفسه ، (وكثيراً ما يأتى بروائع مدهشة) . فيبقى بعيداً عن الناس ، لا يدرى خبره إلا خاصة إخوانه وصفوة خلانه ، وسأقدم بعض هؤلاء الأدباء ، وأستشهد ببعض أقوالهم مصدقة لما وصفت .

هذا ما يفعله الأديب فى فلسطين ليتعرف إلى الناس ويقدم إليهم إنتاجه ، وليس كل أديب عندنا يشأى إلى نشر أدبه فى الأقطار المجاورة ، بل قليل ما أولئك .

وهأنذا أقدم بعض هؤلاء الأدباء الذين استطاعوا أن ينشئوا النهضة الأدبية فى هذا القطر ، وبالرغم من ضيق ذلك الأفق الذى يحوط بالأديب كما أسلفت ، وأذكر فى طليعتهم بعض من تقدم بهم الزمن . فظهروا فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر وتركوا آثاراً قيمة بين مخطوط ومطبوع ومنهم :

الأستاذ يوسف باشا الخالدى : وقد عاش هذا الأديب حياته بين العلم والسياسة ، فكان والياً ثم مبعوثاً فى البرلمان التركى ، فرئيساً لبلدية القدس ، كما كان مدرساً فى فلسطين ، ثم أستاذاً للعربية وآدابها فى جامعة (فينا) ، وهنالك ألف كتباً عدة ، بعضها مخطوط وبعضها مطبوع . ومنها كتاب كان الأول من نوعه ، استنبط فيه قواعد اللغة الكردية ، وأسماه (التحفة الحميدية فى اللغة الكردية) ، ومنها كتاب آخر اسمه (أنا) وهو مجموعة مذكرات وآراء ومعالجات شتى . كما شرح ديوان لبيد وجمع متفرقه وطبعه فى (فينا) . وله عدا ذلك أبحاث شتى ومحاضرات عدة ، وقد أقام فى الآستانة سوقاً أدبياً أسماه (عكاظ) ، وآزره فيه بعض معاصريه من الأدباء .

والأستاذ بندلى صليبا الجوزى : وكان هذا الأديب المقدسى أستاذاً للعربية واللغات السامية فى جامعة (قازان) فى روسيا . ثم فى جامعة (باكو) . وله مؤلفات عدة أهمها : (الحركات الفكرية فى الإسلام) و (الأمومة عند العرب) و (أمراء غسان) . وجميعها مطبوع . والكتاب الأخير منها يكاد يكون تاريخاً للمسيحية العربية فى بلاد الشام ، ولعله استهدف ذلك فى تأليفه .

ومن أبرز ما يمتاز به هذا الأديب صبره البالغ حد العجب ، وجلده المفرط على البحث الدقيق ، والتحرى فى تحقيق ما أشكل وأنبهم .

---

(١) عادت هذه المجلة أخيراً تصدر أسبوعية وتسلك مسلكاً جديداً كما صدر أيضاً عدد من المجلات مؤخراً . سأتناولها جميعاً بالوصف ، حين يستوجب الحديث ذلك .

(٢) صدر أخيراً صحيفتان جديدتان ماتزالان فى طريق الاستكمال .

والأستاذ روحي الخالدي : وقد تنقل هذا الأديب في دراسته الأولى بين الآستانة وأوربة ، وكانت له محاضرات في جامعة (السوربون) ثم أقيم محاضراً في (جمعية نشر اللغات الأجنبية) بباريس . وكان عضواً في مؤتمر المستشرقين ، ثم قنصلا تركيا في (بوردو) بفرنسا .

ومن تصانيفه القيمة : (العالم الاسلامي) و (علم الأدب عند الأفرنج والعرب) و (الانقلاب العثماني) و (رحلة الأندلس) و (المسألة الشرقية) . وجميعها مطبوع . ومن كتبه المخطوطة : (علم الألسنة) و (تاريخ الصهيونية) وهما في المكتبة الخالدية في القدس .

ثم الشيخ يوسف النبهاني : وهو أديب فقيه شاعر . نزح من قريته (اجزم) قرب حيفا إلى بيروت ، وهناك التمع واشتهر وكان راسخ العقيدة شديد التعصب في دينه ، وتبدو آثار تعصبه هذه في معظم ما صاغه من شعر وأبدعه من نثر .

وله مدائح نبوية كثيرة ، تكاد تكون معظم شعره . وكانت تربطه بالأمير شكيب أرسلان صداقة وثيقة العرى ، تتجلى بما كانا يتبادلانه من شعر ونثر . كما كانت تربطه بالأستاذ فارس الشدياق أواصر إلفة ومودة ، حملته على أن يرثيه حين موته بقصيدة رائعة قال فيها :

كم من مشاكل أعيتني فأوضحها
وقال هاك فكاد الطفل يحكيها

وله قصائد (أيضاً) غاية في متانة السبك واختيار الألفاظ ، إلا أنها قيلت في هجاء الأئمة الثلاثة المصلحين ، (جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا) وهم أعلام الهدى والفضل كما تعلم ! !

ومدح الشيخ الصيادي بقصيدة يقول فيها :

وعمت دار الملك أحسب أنها إلى اليوم لم تبرح إلى المجد سلما
فألفيت فيها أمة عربية يرى الترك منها أمة الزنج أكرما

وللنبهاني كتب كثيرة ، أذكر منها كتابه (الأنوار المحمدية[1]).

(له تكملة) محمد سليم الرشدان

(ماجستير في الآداب واللغات السامية)

(١) الأستاذ (إسعاف النشاشيبي) أديب العربية الأكبر معجب بهذا الشيخ إعجاباً يفوق الوصف . ويقول — حفظه الله — : إنه لو نشأ في غير بيئته لكان (على عبقريته) من أنداد شوقي وحافظ

ويلتا لو علموا . . . !

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

من كتاب العمر ، من سفر السنين
صفحات عنـد أخرى يطوين

ما روى مرقومها غير الأسى ما حوى مسطورها غير الأنين
عبراتي في حواشيها جرت وجراحي قطرت فوق المتون
يا لعمر رنقت منهله بَنَّاتُ الدهر والدهر خؤون
جزتها تسعاً وعشرين فهل غير كأس الشجو عاطتني السنون
مرست لي الصاب في شهد الصبي ومن الأفراح عافتني شجون

* * *

ويقولون : تحدى واقعاً قيد الروح بأغلال العذاب
وانعمي بالعمر ، ما العمر سوى غفوة العين على حلم كذاب
يتصدى تارة جهم الرؤى وهو طوراً ذو خيالات عذاب
هو ذا الواقع ، حلم عابر فاغنميه كلما لذ وطاب
وإذا يسري وجيعاً راعباً فتحديه بأفراح الشباب
وابسمي ، فالزهر رفاف الندى وانعمي فالغصن ريان الأهاب

* * *

ويقولون : اصدحي وانطلقي من إسار الحزن ، من قيد الذكر
حسب ألحانك ما أرسلته من شجا فيها ودمع منهمر
أبكاء والتياعاً وأسى والصبي فرحة أيام العمر
والصبي طير طروب روحه غرد ما راح ، شاد ما بكر
خاطف عما قليل ظله إذ يوافيه الخريف المنتظر
حين لا النوار نام الشذى لا ، ولا الروض أنيق مزدهر

* * *

ويلتا لو علموا كيف هوى ذلك الطير دراكا من سماه
الدياجي طبقت آفاقه والرياح الهوج طاحت بقواه
من رآه قلقاً في وكره لائباً ، يوشك يرديه صداه
إن هفا يبغي انطلاقاً كسرت من جناحيه أعاصير الحياه
أو شدا قام الشجا معترضاً آخذاً منه بأوتار اللهاه
... ...
كيف يشدو ؟ كيف يهفو وعلى ريشه يجرى نجيع من دماه